تنقه وتحاسب وتحاذر ولا تكتفي بمهارة رجليك على المشي بل تستخدم عقلك وانتباهك كلهُ والاَّ داسك الترامواي كما داس كثيرين قبلك واذا اضيف الى الترامواي الاوتوموبيل في شوارع ضيقة مثل شوارع القاهرة وجب على الانسان ان ينقل دماغهُ من رأسهِ الى قدميهِ وهو سائر والاَّ فحياتهُ في خطر دائم

الفلسفة المادية ومذهب النشوء

(من مقدمة بحث على مذهب دارون)

اوَّل من ذكر مذهب بستور في الجراثيم باللغة العربية المقتطف اقدم مجلة عربية علمية بل المجلة العلمية الوحيدة في الشرق حتى اليوم . وذلك حوالى سنة ١٨٧٩ . ولكنهُ ذكرهُ في عرض الكلام على تأييد مذهب الحيويين ونقض مذهب الماديين مشايعة للآراء الغالبة في ذلك الحين . كما انهُ كان اول من نقل الى هذه اللغة ايضاً كلاماً لبعضهم في مذهب دارون في النشوء ولكن لتقضهِ على اسلوب يوافق اصحاب مذهب الخلق . ومع ذلك فلم يسلم من الانتقاد خصوصاً من اصحاب المذاهب القديمة ولو على نقل المذاهب العلمية الجديدة فقط . فلم يراعوا معهُ العمل بالمثل القائل « ناقل الكفر ليس بكافر » بل اعتبروهُ شريكاً بالتضامن حتى كانت كل حياتهِ الاولى جهاداً عنيفاً الجأهُ الى الهجرة اخيراً الى مصر

والحق يقال ان الوسط الذي كان المقتطف مقيماً فيهِ كان يحمل مركزهُ محفوفاً بالمصاعب . على انهُ في المسائل العلمية العامة لم يسلك مسلك التشيع الأعمى ولم يوصد في وجه الباحثين حتى اقدم مباينة لآرائهِ باب الانتقاد ونشر الآراء الجديدة بحرية تامة فكان لهُ بذلك الفضل الاول في اعداد الافكار في الشرق لقبول روح العلم على الاطلاق . وما كان اشتدادهُ احياناً في مقاومة آراء خصومهِ الاَّ فضلاً لهُ ايضاً جعل هذا الاعداد اتم بحمل العقول على التوسع في الروية للانتقال بها من الرضوخ المطلق الى التفكير والبحث قبل التسليم . ولهُ عليَّ فضلٌ خصوصيٌّ ايضاً لا اريد ان ادع هذه الفرصة تمرُّ من غير ان اسديهُ شكري الخالص عليهِ فقد حمل عني كثيراً من مطاعن الطاعنين بسبب مباحثي ولو لم يكن نصيبي فيها . وكثيراً ما كانوا يتناسونني ويمسكون بهِ وحدهُ وهو منتهى الفضل لهُ

ولما كانت الحقيقة لا تتجزأ فاما هنا واما هناك وكانت مباحث الطبيعيين اقرب مذهب الماديين في فلسفة الكون الى قرار علمي مكين اقل ما فيهِ انهُ يثبت مبدأ التوحيد الطبيعي في

المواد والقوى رأيت ان اخوض غمار هذا البحث من وجهه العلمي البحت غير حافل بالمصاعب التي ستعترضني في هذا السبيل وان اخفه بتلك الصراحة الجارحة التي لم يكن قد ألفها الجمهور يبننا منكباً عن خطة الذين يرون ان الحكمة انما هي في المصاداة لعلي ازحزح الافكار عن مألوفها لعلي ان تحريك الافكار لا يكون غالباً الاَّ بمثل هذه المصادرة العنيفة لما يحدث ذلك فيها من الرجة القاسرة لتسهيل انتقال الانسان في العمران من حال الى حال . وما حالهُ التي هو فيها عنوان السعادة وما كانت في الماضي مما يؤسف عليهِ

فبادرت المقتطف حينئذٍ بكلام وجيز انتقد عليهِ انجازهُ الى مبدإ الحيويين واعتبارهُ مذهب بستور خصوصاً مؤيداً لهم ناقياً للقول بالتولد الذاتي وهو لا يؤيد قولاً ولا ينفي آخر كما تقدم . وكأني جهلت مركزهُ او تجاهلتهُ فختمت كلامي بتوجيه الخطاب الى منشئهِ قائلاً « ومثلكم لا يساغ على ذلك وانتم بجانب كعبة العلم » وقد ردَّ المقتطف عليَّ بمقال عنوانهُ « الحياة حيرة العلماء » وختمهُ بهذا القول السديد الحكم في هذا المقام قال « ولو قعدت كعبة العلم التي نحن بجانبها مقعدنا لما استصوبت الاَّ آيتنا »

ولما كان الغرض من كل ذلك طرق مذهب الماديين من وجهه العلمي نشرت مقالاً اردفتهُ فيهِ على المقتطف تحت عنوان « الحيرة علة البحث » ثم اردفتهُ بمقال آخر عنوانهُ « الحس وانواعهُ المختلفة » بنيتهُ على قول كلود برنار « الحس تكيف في التأثير لكيفية في المؤثر » واستطردت منهُ الى هذا القول الذي كان غرضي من كلامي السابق توجيه النظر اليهِ لاول مرة في اللغة العربية للبحث فيهِ على وجهٍ علمي فلسفي وهو :

« واذا نظرنا الى الحس من حيث كونهُ تكيفاً في التأثير لكيفية في المؤثر كما في قول كلود برنار فلا نستطيع ان نقفل باب الكلام في هذا الموضوع حتى نأتي ولو باشارة فقط الى كون المادة ذات حسٍّ ايضاً بدليل انها تتأثر حال كونها مؤثرة وتنفعل حال كونها فاعلة . فيكون حس الاجسام الآلية مرتبطاً ارتباط الجزء بالكل بتلك القوة العظيمة التي بها تتجاذب الاجسام بالنسبة الى مادتها وبالقلب كربع البعد بينها اعني بها الجاذبية العامة التي هي عبارة عن حس المادة في ابسط معانيهِ واعمِّ انواعهِ » اه

وقصدت بهذا القول ان ابين ان القوى الحيوية والقوى الطبيعية واحدة من مصدر واحد . ترجع بعضها الى بعض وتتحوَّل بعضها عن بعض . وما خاب ظني في ما يكون لهذا القول من التأثير فقد جرَّ الى مناقشات اظهر بعضهم فيها استغرابهُ لحس المادة هذا وكأنهُ نظر الى التعريف اللغوي فقال لي « انا اشعل هذه السيكارة فهل هي تحس » وحمل شيئاً غيرهُ

حملة شعواء انتصاراً للبدإ الحيوي وتنبيهاً لما يترتب عليه من التولد الذاتي واهم هذه المناقشات مدرج في المقتطف في ذلك الحين[1]

وغرضي من طرق هذا البحث على هذه الصورة انما كان لاقرار الفلسفة المادية على اساس علمي متين لازالة الوهم العالق باذهان كثيرين في تلك الايام من انها فلسفة يرمي اصحابها بها الى اغراض سافلة ويحاول خصومها تمكينه في اذهان العامة لتنفيرهم منها وهي خطة دنيئة في العلم وهي اليوم فوق ذلك خطة خرق لان حبلها قصير. فالفلسفة المادية اليوم تختلف كثيراً عن فلسفة الماديين القديمة في انها كانت كفلسفة اصحاب ما فوق الطبيعة نظرية بحتة واما اليوم فهي فلسفة قائمة على مبادئ علمية ثابتة قضاياها تكاد تكون كالقضايا الرياضية نفسها

وما عنيت بتقرير هذه الحقيقة اولاً الا لغرض اهم وهو جعلها توطئة لتأييد مذهب دارون في النشوء والتحوّل الى اقصاه باعداد الافكار له. اذ لا يخفى ان هذا المذهب كان لذلك العهد لا يجسر احد بيننا ان يتكلم عنه الا في معرض النفي. وقد جاء ذكره مرّة عرضاً في خطاب للدكتور لويس احد اساتذة المدرسة الكلية السورية فهاج الخواطر هناك عليه حتى اضطر الى الاستعفاء. وما ذكرت ذلك هنا الا لابين مبلغ استنكار عامة العلماء لهذا المذهب ومبلغ اقصائه من دور العلم في ذلك العهد. — واما اليوم فلم يعد مستنكراً الى هذا الحد بل صار يعلَّم في اكثر المدارس الحرّة. واول مدرسة ذكر فيها بالتصويب مدرسة ليون الفرنساوية الطبية وذلك في سنة ١٨٨٧ في خطاب لاحد اساتذتها المدعو تستو عنوانه الانسان في نظر المشرّح[2] وقد حوّلهُ كثيرون اليوم الى غرضهم كما طبقوا كلام غليلي في الارض على غرضهم بعد ان قاموا عليه وكما تحوّلت انا الى ان اكون من الغلاة فيه بعد ان انكرته وتأففت من ذكره اوّل ما سمعت به

في سنة ١٨٧١ — وكنت ادرس الطب في المدرسة الكلية السورية — سمعت — ولا اذكر كيف سمعت — انهُ قام رجل يدّعي ان اصل الانسان من القرد[3]. فلم اتحرّ حقيقة

(١) في المجلد الثالث والرابع والخامس والسادس (٢) النشوء: المجلد الثاني

(٣) [المقتطف] هذا ما يذكرهُ الدكتور شبيل وقد كرّرهُ مراراً على سمعنا في السنين الاخيرة. اما نحن فنتذكر انهُ هو اول من ذكر لنا مذهب دارون وذلك سنة ١٨٧٠ حينما كنا ندرس في المدرسة الكلية الاميركية سوية. ذكرهُ على سبيل الاستغراب كغيره ممن اطلع عليه. وكان تأثيرهُ في نفوسنا حينئذٍ انهُ ان ثبت ثبتت به وحدة الخالق ولكن نقضت به التعاليم الدينية عن كيفية خلق الانسان وسائر انواع الحيوان

هذا القول ولم يكن في تعليم المدرسة ما يحملني على التبصر فيهِ . وغاية ما اذكر اني لم اصغ بهِ حتى اظهرت اشمئزازي منهُ ومن قائلهِ الذي اعتبرتهُ حينئذٍ دعيًّا ما خالف الاَّ ليعرف . ولا عجب فان الكيفية التي ذكر لي فيها والتي يذكرهُ بها دائمًا خصومهُ من ان القرد اصل الانسان لا يمكن ان تحدث في سامعها لاول مرَّة وهو متشرِّب بالاعتقادات المخالفة الاَّ نفورًا ولو ان في نوع الانسان من هو احطُّ من القرد بكثير . وهو سلاحٌ بفتريهِ خصوم هذا المذهب لتحقيرهِ . والاَّ فمذهب دارون لا يقول ان القرد اصل الانسان وان الحمار اصل الفرس بل ان الانسان والقرد والفرس وسائر الاحياء في الطبيعة قاطبة من اصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة وتجرُّد قواها وقد تغيرت تبعًا لناموس المطابقة حتى بلغت مبلغها الآن بالانتخاب الطبيعي

ثم مرَّت الشهور ولا اذكر اني عرجت عن هذا المذهب شيئًا جديدًا حتى نسيتهُ . ومن الغريب اني بعد ذلك بزمان عند نيلي الشهادة كان موضوع خطابي[1] المدرسي النهائي « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والتغذية والتربية » وقد جئتُ فيهِ بكثير مما يؤيد هذا المذهب وانا لا اقصد فكنت كالذي كان يقول الشرَّ وهو لا يدري[2]

ولكنَّ الذي لم اكن اقصدهُ في ذلك الحين لم يلبث ان صار موقف افكاري وموضوع حديثي وغرضي في كل كتاباتي بعد مبارحتي المدرسة ورحلتي الى اوربا واطلاعي على هذا المذهب في مؤلفات اصحابهِ . ولم اجد حينئذٍ ادنى صعوبة في تطبيقهِ على اقصى ما يرمي اليهِ قبل ان اطَّلع على مؤلفات الفلاة فيهِ كهكل وبخنر . لان علوم المقابلة في الطب تساعد كثيرًا على ذلك . كما انهُ هو نفسهُ لم يجد ادنى صعوبة في امتلاكي لان تربيتي المدرسية لم تسمِّ بطابعها فان استقلال صحتي في حداثتي لم يسمح لي بان اكون من متخرجي المدارس في ما خلا الطب . ولم اقرأ شيئًا من العلوم الكمالية التي يقولون انها توسع العقل وهي في اعتقادي تضيقهُ فكأن ذلك حفظ لي استقلال افكاري . وما ذكرت ذلك هنا الاَّ لأؤيد ما قلتهُ في ما تقدَّم من سوء تأثير التربية المدرسية كما لا تزال حتى الآن في تقييد العقول فيشبُّ التلميذ فيها ويخرج منها فاقدًا كل استقلال في افكارهِ وخصوصًا كل تسامح وتاهيك بما يترتب على ذلك في الحياة الاجتماعية من الشرور

ولقد بلغ مني الاقتناع بصحة هذا المذهب اني صرت اعتبر مبادئهُ اوليات لا يجوز ان تخفى على ابسط متعلم واقل مفكر فاذا لم يصرِّح بها فلعدم جسارة او لمصلحة . وفاتني ان هناك

(١) هذا الخطاب استعارهُ من احد البلداء الحمقى فاضاعهُ عليَّ ولم يردهُ ولم اعد اعلم بعد ذلك مصيرهُ (٢) مثل فرنسوي

امثلة اخرى اعم لم اتنبه لها حتى انتبهت الى تطبيق هذا المذهب على الفلسفة العقلية نفسها فانجلى لي سرّ كل هذه المناقضات في العقول المختلفة اذ اتضح لي ان علم البيكولوجية اي علم العقل او النفس فرعٌ من علم الفزيولوجية اي علم منافع الاعضاء فيجب النظر في العقل كالنظر في وظائف الاعضاء باعتبار انهُ عملٌ ماديٌّ. فكل ما يتطرّق الى المادّة من نواميس النشوء والتحوّل ويؤثر فيها يؤثر في العقل نفسهِ الذي هو ليس الاَّ فعلاً من افعال الدماغ. فاذا كان للاقليم وسائر نواميس المطابقة والانتخاب الطبيعي والوراثة شأن عظيم في تكييف الاعضاء الحية واثرٌ لا يمحى الاَّ في الاجيال المتطاولة اذا تغيرت الاحوال فللتربية والتعليم والعادات والاعتقادات وكل ما يؤثر في الاخلاق اثر في العقول ايضاً لا يزول الاَّ بمثل تلك الصعوبة حتى لقد يزول من الابناء اثر ما في الآباء من الاجداد ثم يعود ويظهر في الاحفاد لرسوخ ذلك في الطبائع وشدّة تكيفها بهِ. وعليهِ تاموس الرجعة عندهم ويراد بهِ الارتداد الى الاصل وهي حقيقة عرفها العامّة قبل ان يقرّرها العلماء بقولهم «الاصل يحنّ»

ولهذا كانت اعمال العقل كثيرة التناقض شديدة التغاير عرضةً بالمفارقات فترى الرجل الذكي الفوّاد والعالم المتضلع ضروباً بخفافة نفوراً من حقيقة. فاذا نظرت الى كل ذلك من خلال مذهب النشوء والتحول تبدت لك الحقيقة الناصعة وسهل عليك حل هذا الاشكال. فاتاني في بعضهم مرةً بقولهِ «انك لمصيبة على الناس لمغايرتهم في افكارهم» فاجبتهُ بقولي «اذا جازت الشكوى فمن انا اولى بالشفقة انتم الذين مصيبتكم في واحدة ام انا الذي مصيبتي بكم متعددة»

واذا كنت كتبت ما يغاير مجرى الافكار غالباً او جدوت الانتقاد احياناً فليس لاني كنت اتجمع بان ارد الناس اليَّ في هذا الزمن القصير وانا لا اجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات بل لاني قصدت مباغتة الافكار لفتها الى غير مألوفها. وان كنت لا اجهل ان القاء الحجر في المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة الاَّ ريثما ينقضي حذرها فتعود الى نقيقها الاَّ اني لا اجهل ايضاً فعل الخمير الخمرَ. فان اقل ما يعلق بالعقول حينئذٍ من اثر الافكار المخالفة يقوّ فيها غالباً بسرعة الاختمار نفسهِ خصوصاً اذا صادف استعداداً في النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليهِ فيكون مثل هذا التنبيه لهُ بمثابة الشرارة في اثارة كامن القوى المجتمعة. ولعل الناظر الى ما بين طرفي هذه الفترة القصيرة من ذلك العهد الى اليوم لا يسعهُ الاَّ الاعتراف بصحة هذا القول

الدكتور شميل